لنهار 28 نيسان 2001

مؤتمر "الحرب العالمية الأولى في ذاكرة بلدان شرق المتوسط": المنتصرون والمهزومون وجهاً لوجه

عبد الرؤوف سنّو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

"الحرب العالمية الأولى في ذاكرة بلدان المتوسط"، هي عنوان كبير لتظاهرة أكاديمية (مؤتمر) حول الذاكرة والتاريخ تعقد في بيروت ما بين 27 نيسان والأول من أيار برعاية وزير الثقافية الدكتور غسان سلامة، وحضور سفيرة ألمانيا في لبنان السيدة هـ. أ. ج. كيمفيه – سيكورا، وممثل الاتحاد الأوروبي في لبنان وسفيري تركيا هولندا وعدد كبير من الشخصيات العلمية والثقافية والأدبية. وقد أشرف على تنظيم المؤتمر ثلاثة معاهد أكاديمية دولية: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، والمعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية في استانبول، والمعهد الألماني للدراسات التاريخية في روما.

اثنان وأربعون عالماً وعالمة من إيطاليا وسويسرا وألمانيا وتركيا واليونان وقبرص والولايات المتحدة الأميركية وأوستراليا، فضلاً عن مصر وسوريا ولبنان يبحثون في الأنماط الثقافية لذاكرات الحرب في إيطاليا واليونان وتركيا الحديثة وسوريا ولبنان ومصر. ينبّش هؤلاء في الذاكرات والتواريخ والثقافات وفي عمليات التذكر ومنطلقاته والرؤى والمواقف وطرق ووسائل الاستجابة لتحديات الحرب من قبل شعوب شرقي المتوسط تجاه أول صراع دولي واسع هز العالم، مع التركيز على دور الذاكرات المختلفة لهذه الشعوب في ظهور الهويات الوطنية والتشكيلات السياسية.

ولا تمكن أهمية هذا المؤتمر في هذا الحشد الأكاديمي الكبير، وإنما في ظروف انعقاده ومدلولاته السياسية واختيار لبنان مكان لجلساته. فهذه هي المرة الأولى التي تتحاور فيها أطراف الحرب، الهادفون والمستهدفون، حول كل أوجه الصراع ويناقشون آثاره وتداعياته السياسية والاجتماعية والثقافية. ولعل للذاكرة الألمانية - التركية نكهتها الخاصة على مكان انعقاد المؤتمر. فمن بلاد الشام، أراد الحليفان، ألمانيا وتركيا، غزو مصر وضرب الإمبراطورية البريطانية في مركز أعصابها (السويس). ومن أجل حملة السويس، مارس جمال باشا أبشع حملات التنكيل والقهر ضد اللبنانيين، وغض الألمان الطرف عن كل مساوئه. لقد شكل لبنان على الدوام أهمية مميزة بالنسبة للعالم: للدولة العثمانية، بسبب وضعه الخاص ضمن الدولة العثمانية، ولألمانيا وأوروبا، بسبب تطوره الثقافي، ولأنه بمثابة بوابة الغرب الى الشرق، وبوابة الشرق الى الغرب. من هنا، فعقد المؤتمر في لبنان، ومشاركة الألمان والأتراك (12 ألماني و7 أتراك) هو تقدير للبنان الصامد على الدوام في الحروب والأزمات.

أكثر من ثمانية عقود انقضت على الحرب العالمية الأولى، وأحداث هذا الصراع الدولي ومسبباته وتداعياته تتشبث في ذاكرات شعوب شرقي البحر المتوسط. فتواريخ وحكايات الحرب وويلاتها ومآسيها وتلاعب المتصارعين والمتحاربين بالشعوب وعقولهم وأحلامهم وأمانيهم ومصيرهم لا تزال حية تتوارثها الأجيال، وكأن هذه الذاكرة "المتوسطية" لا تعرف النسيان. لقد أنتجت الحرب تحولات جذرية في تاريخ المنطقة طالت المجالات السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والثقافية والنفسية. خسر العثمانيون الحرب ونفضوا عنهم إرث الماضي وحرفهم العربي وتقوقعوا بعد قرون من المجد في الشق الآسيوي من إمبراطوريتهم. حطم العرب الرابطة العثمانية وساروا في مشروع استقلالهم القومي، دون أن يدركوا أنهم يتخلصون من سيطرة عثمانية ليقعوا ضحية استعمار تقاسم بلادهم (سايكس – بيكو) واغتصب ما اغتصب (تصريح بلفور). جعلت الولايات المتحدة من مبادىء الحرية ستاراً لتسربها الى المنطقة، وغلفت أوروبا مصالحها الإمبريالية القديمة بانتداب حمل شعار التمدين، فكانت "الحرية" و"التمدين" المستوردين أسوأ من أي قهر مباشر. وحتى استقلال مصر والعراق ظل صورياً، وشرقي الأردن مخلوقاً بريطانياً، و"لبنان الكبير" تشكيلاً فرنسياً. سال دم أرمني غزير على مذبح القومية التركية، وهدرت دماء هنا وهناك في معارك قررها الكبار، فيما بقي "الصغار" وقوداً وأدوات، وجاع أناس كثيرون وحصدهم المرض والمجاعة.

كيف تتذكر مجتمعات شرقي البحر المتوسط الحرب، وما هي الأشكال الثقافية للذاكرات، وكيف تنعكس هذه بتنوعها على التكوين السياسي للشخصية الوطنية وعلى فهم التغير التاريخي الذي حصل؟ هذا ما يسعى إليه الباحثون والباحثات عبر محورين رئيسيين: 1) آثار الحرب السياسية والاجتماعية على الذاكرة الجماعية، والتغير الذي أصاب أشكال فهم الذات بفعل الحرب، والمناقشات حول الحرب وتداعياتها الاجتماعية.
2) عملية الصياغة الرمزية لصور وحكايات وأحداث الحرب في ذكريات الحرب والتأريخ والسير الذاتية والأدب وما اختزنه العسكريون من تجارب ومشاهدات.

انطلاقاً من هذين المحورين، تتفرع الأبحاث والأوراق. فترصد التجارب التاريخية والمتغيرات التاريخية والخصوصيات الثقافية والقومية وما تختزنه الذاكرات. يطرح بعض المداخلات تساؤلات عدة حول أهمية الحرب في الذاكرة الثقافية الوطنية، وإشكاليات هذه التجربة وتأثيراتها على عملية الاستنهاضين الوطني والقومي وعلى الهوية السياسية والمفاهيم الثقافية والحراك الاجتماعي في بلدان شرقي البحر المتوسط عموماً، وبلدان الشرق الأدنى خصوصاً. وتتناول أبحاث أخرى الرؤى والمفاهيم المختلفة والمميزة للقوى الاجتماعية والمجتمعات القومية، فيما تهتم مداخلات عدة بالتأثيرات الاجتماعية الرئيسية المباشرة للحرب على شعوب المتوسط، سلوكيات ومجاعة وحراكاً ونزفاً نحو الخارج. ويقدم بعض الباحثين أوراقاً حول حكايات الحرب وصورها ورموزها وانعكاساتها في الأدب والذاكرة والتأريخ. وتشكل ذكريات العسكريين في الجيش العثماني وأدوارهم ومشاهداتهم اليومية عن الحرب، فضلاً عن المذكرات والسير الذاتية، مصدراً مهماً في أبحاث عدد من المشاركين، وذلك بهدف معرفة التجربة الفردية لإنسان الحرب. بالإضافة الى ذلك، تحتل إيديولوجيات الحرب ومبرراتها ودعايات الحرب ووسائلها ودورها في استقطاب وتجييش وتعبئة شعوب المنطقة، حيزاً مهماً من أعمال المؤتمر.

هذه التظاهرة الأكاديمية التي استغرق الإعداد لها أكثر من عام وأشرف على تنظيمها ومتابعتها فريق عمل بإشراف الدكتور أولاف فارشيد، تحدث عنها رئيس المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت الدكتور مانفرد كروب في جلسة الافتتاح بعد ظهر أمس الجمعية. ثم تلاه في الترحيب رئيس المعهد الألماني للدراسات التاريخية، وكلمة لوزير الثقافة ممثلاً بالأستاذ إسبر. وختمت سفيرة ألمانيا بلفت الانتباه الى سياسة الحكومة الألمانية في تشجيع البحث العلمي وحوار الثقافات. وامتدحت الحكومة اللبنانية على سياستها في الاهتمام بالنواحي الثقافية.

بدأت أولى جلسات المؤتمر بمداخلة لشيخ المؤرخين الدكتور نيقولا زيادة، الذي قرأ من ذاكرته النابضة على الدوام كطفل ناصري – فلسطيني في السابعة من عمره، الكثير من مشاهداته ومعايناته ومعاناته متنقلاً ما بين دمشق والناصرة وجنين. عاصر الحملتين العسكريتين العثمانيتين الفاشلتين الأولى والثانية على السويس انطلاقاً من فلسطين، واستقبل القوات البريطانية الداخلة الى شمالي البلاد في أيلول 1918 وما أحدثته من تبدلات فورية للأوضاع. وأضاف، إن الحرب لم ترحم الصغار قبل الكبار. فعندما احتفى والده الذي طُلب الى الجندية، كان عليه أن يبحث عنه في المستشفيات، وسط الجرحى والمرضى وأنين المحتضرين. وعندما تأكدت عائلته من وفاته، بدأت المعاناة. فمن يتكفل بالعائلة زيادة المؤلفة من أربعة أشخاص (الأم وأودها الثلاثة) في ظروف الحرب الصعبة؟ شاهد بأم العين معاناة الفقراء، وأحس بما كانوا يسميه الأهالي "اختفاء المؤن الأساسية" التي كانت تصادرها السلطات العثمانية. كما حُرم من الذهاب الى المدرسة، لأن العثمانيين كانوا يصادرون المؤسسات التعليمية لتحويلها الى ثكنات. كما تحدث عن إجبار السلطات العثمانية السكان في سوريا وفلسطين على التعامل بالعملة الورقية. ولا تتوقف ذاكرة زيادة عن نهاية الحرب. فهي تمتد الى أبعد بكثير. أكثر ما أفرحه بعد الحرب، هو عودته الى المدرسة، وارتفاع نسبة الزيجات والاحتفالات بعودة المجندين الفلسطينيين الى ديارهم.